مجد كيّال*

نشأت ملحم وفسيفساء الحُلم الأميركي

توطئة

تطلب هذه المقالة أن تُبيّن كيف عكست التغطية الإعلاميّة الإسرائيليّة لعمليّة نشأت ملحم، مسارين متنافسين، متضاربين من حيث الهيئة ومنسجمين من حيث الجوهر، في السياسة الإسرائيليّة. وكيف شكّلت تغطية العمليّة استمراراً لمرحلة الانتخابات البرلمانيّة الأخيرة، التي انقسمت فيها السياسة عموديًا حول الموقف من شخص، أداء وأيديولوجيا بنيامين نتنياهو. بتحديد هذين المسارين وتقفّي أثرهما، تظهر تصريحات نتنياهو وخطواته السياسيّة في سياقٍ منهجيّ واحد يتعدّى كونه «انتهازيّة انتخابيّة»، ويدخل في التغييرات التي يرجوها نتنياهو في نظام الحكم في إسرائيل.

يبدو ستوديو القناة العاشرة مثل مجلس نميمة صباحيّة في قريةٍ جليليّة؛ محللون وصحافيّون يدلون بآرائهم التي لا تستند إلا لأعشار الحقائق والمعطيات. يتناقشون بحلقةٍ مفرغة ومرجعيّات هشّة بينما يتحوّل دور مقدّمة النشرة إلى كومبارس يُذكّر المشاهدين والمتحدّثين بأن شيئًا مما يُقال حول الطاولة، ليس في عداد الحقائق المؤكّدة. هذا اليوم الأوّل من العام ٢٠١٦، نشرة مساء يوم الجمعة، ساعات قليلة بعد عمليّة إطلاق النار التي نفّذها نشأت ملحم، من قرية عرعرة داخل الخطّ الأخضر، وسط مدينة تل أبيب. على القناة الثانية، يجزم الصحافيّون بأن أجهزة الأمن ستُلقي القبض على الشاب خلال وقتٍ قصير. صحافيّان اثنان خمّنا بثقة أن الشرطة ستقبض عليه «قبل نهاية النشرة». لكنّ النشرة لم تنته استمرت لأيامٍ ثمانية، وانتهت بإعدام الشاب الذي أكدت العائلة منذ اللحظات الأولى على أنه لم يكن بكامل صحّته النفسيّة.

(*) صحافي وناشط شبابي

لكنّ التجربة الحقيقيّة لم تبدأ إلا بعد أن أعلنت الشرطة أن منفّذ العمليّة من فلسطينيي الداخل. وخلال لحظات قليلة ارتسمت في الصحافة حدود واضحة عكست توجّهين إسرائيليين بالنسبة للمجتمع الفلسطيني في إسرائيل. واحد من المشاهد التي عبّرت عن هذين التوجهين بقوّة كان الملاسنة الحادّة بين الصحافي روني دانيئيل والصحافيّة دانا فايس خلال النشرة المركزيّة مساء يوم العمليّة

لكنّ التجربة الحقيقيّة لم تبدأ إلا بعد أن أعلنت الشرطة أن منفّذ العمليّة من فلسطينيي الداخل. وخلال لحظات قليلة ارتسمت في الصحافة حدود واضحة عكست توجّهين إسرائيليين بالنسبة للمجتمع الفلسطيني في إسرائيل. واحد من المشاهد التي عبّرت عن هذين التوجهين بقوّة كان الملاسنة الحادّة بين الصحافي روني دانيئيل والصحافيّة دانا فايس خلال النشرة المركزيّة مساء يوم العمليّة.[1] شدّدت فايس على أن العائلة أبلغت الشرطة عن ابنها، وذكّرت أن نسبة مُنفّذي العمليّات من «عرب إسرائيل» هي نسبة ضئيلة جدًا. دانيئيل عقّب أنه «يحترم العائلة جدًا على خطوتها، ولكنّ الامتحان الحقيقيّ هو في تعامل البيئة في القرية مع خطوة العائلة، وما سيكون الرأي العام حول هذه الخطوة.» كان توجّه دانيئيل عنصريًا هادئًا، بدأ حديثه بلهجةٍ إيجابيّة ثم أبدى تحفّظًا يضع المجتمع الفلسطينيّ في خانة المطالبين بإثبات أنفسهم عبر امتحاناته – لكنّه لم يكن عنصريًا جازمًا. أما فايس، فقاطعت حديثه بعصبيّة عنيفة ومندفعة: «ما الذي تقوله؟ أن كل أهالي القرى في وادي عارة مخرّبون متخفّون؟» – كان ردًا مندفعًا تردّ فيه فايس على كلام لم يُقلل، وفي المضمون غير المنطوق – تقع خلاصة التعاطي الإسرائيليّ مع الفلسطينيين كما ظهر في قضيّة نشأت ملحم. ردّ دانيئيل باستخفاف وهدوء ولم يقع في الاحتدام الذي جُرّت إليه فايس، وشدد على أنه لم يقل أن جميع أهالي وادي عارة مخرّبون، ليُصبح بذلك «مجرّد السؤال حول تعامل المجتمع مع قرار العائلة» طلبًا معتدلًا، منطقيًا، ومفهومًا عبر الشاشة الإسرائيليّة مقابل احتدام فايس. في هذه اللحظة الإعلاميّة، ومثلها الكثير في حوارات الراديو والصحافة المكتوبة، أعاد الإعلام تحديد مستوى الاعتدال الذي يحكم الخطاب السياسي. فهو من جهةٍ يُهاجم من يحمّل المجتمع العربي كلّه مسؤوليّة العمليّة، لكنّه في الوقت ذاته يبتذل السعي لإثبات براءة من يسمّونهم «عرب إسرائيل» من العمليّة حتّى بات النفي الحثيث دلالةً على قوّة التُهمة. منذ تلك اللحظة، أجمع الإسرائيليّون على أن تلك الأيّام هي أيّام امتحانٍ للمجتمع الفلسطيني وعليه أن يثبت جدارته بالمواطنة الإسرائيليّة، أما الخلاف ففي الرهان – روني دانيئيل وما يمثّله يراهنون على فشل المجتمع الفلسطيني في امتحان المواطنة الإسرائيليّة، فايس وما تمثّله يراهنون على «نجاحه». المحسوبون على مركز ويسار الخارطة السياسيّة الإسرائيليّون انطلقوا في حملة عفويّة مهووسة لإثبات اجتياز فلسطينيّي الداخل لامتحان المواطنة. مذيعون يكررون إحصائيّات غريبة حولنا – «٨٥ بالمئة منهم يريدون أن يتعلّموا ويشتغلوا فقط» (!) – كلها تخلص إلى أن أغلبيتنا الساحقة مندمجة في الدولة، لا نريد أن نترك الدولة ونعارض التبادل السكّانيّ.[2] أن عائلة المتّهم «طبيعيّة» والإثبات لذلك أن والده يتطوّع بالشرطة، وصحافيّ آخر يُطل كل بضعة ساعات ليُقيّم «أداء العائلة» بأنه «جيّد جدًا».[3] في هذا الاستعراض، تأتي علاقة الصحافيين والمذيعين بأهالي عرعرة وعائلة ملحم، إذ حوّلتهم الصحافة إلى موضوعات تعرف دورها جيّدًا، وتُطرح عليها أسئلة صيغت لتخلّف أجوبة معروفة مُسبقًا كلها تسعى لإثبات براءة المجتمع من أفعال ملحم، وكلّها تتوسّل رضى الجمهور اليهودي، بتسليم تام لنزعاته العنصريّة وشرعنة إعلاميّة تامّة للتشكيك الإسرائيلي بفلسطينيي الداخل.

من الجهة الأخرى، تفهّم الإعلام الإسرائيليّ حقد وسخط الأغلبيّة اليهوديّة اتجاه العرب، وشَكك بشكلٍ قطعيّ برواية العائلة بأن ما حدث هو نتيجة إشكاليّات نفسيّة خطيرة يعاني منها الشاب.٤ تعامل المحللون مع أقوال العائلة على أنّها «خطّ دفاع» قضائيّ تحضّره العائلة لمواجهة محاكمة ابنها، وأكّدوا أنهم لا يستطيعون

تفهّم الإعلام الإسرائيليّ حقد وسخط الأغلبيّة اليهوديّة اتجاه العرب، وشَكك بشكلٍ قطعيّ برواية العائلة بأن ما حدث هو نتيجة إشكاليّات نفسيّة خطيرة يعاني منها الشاب.٤ تعامل المحللون مع أقوال العائلة على أنّها «خطّ دفاعٍ» قضائيّ تحضّره العائلة لمواجهة محاكمة ابنها، وأكّدوا أنهم لا يستطيعون الاعتماد على هذه الأقوال قبل أن يُعتقل المنفذ ويخضع لتشخيص من الأطباء النفسيين.

الاعتماد على هذه الأقوال قبل أن يُعتقل المنفذ ويخضع لتشخيص من الأطباء النفسيين، في الوقت ذاته، استعانوا باللقطات المصوّرة، ليُثبتوا أن الهدوء الذي تحلّى به منفّذ العمليّة يدل على أنه لم يكن مختلّ العقل – متجاهلين (رغم تنبيه بعض الخبراء) أنّ الهدوء وضبط النفس لا يدلّ وحده وبالضرورة على حال الصحّة النفسيّة للإنسان.[٥] كلّ ذلك، إصراراً على الطابع القوميّ للعمليّة الذي يضع الفلسطينيين، قالوا ما قالوه، في دائرة الطرف المعتدي. أما الأسئلة التي طُرحت على العائلة وأهالي قرية عرعرة لم تبق في عداد طلب الاستنكار والتبرّؤ من منفّذ العمليّة، إنما تعدّت ذلك لتتحوّل أسئلة تحقيقٍ جنائيّ فعليّ مع أبناء العائلة وأبناء القرية. أسئلة مثل: هل تعرفون أي يختبئ؟ هل لديكم فكرة إلى أين يمكنه اللجوء؟ هل تعرفون أشخاصًا لربما عاونوه لتنفيذ فعلته؟ هل كان ينتمي إلى فصيلٍ سياسيّ؟ وإن لم يكن ذلك كافيًا – تُوّجت كل مقابلة مع أهالي القرية بأن يطلبوا منهم أن يوجّهوا لمنفّذ العمليّة نداءً ليُسلّم نفسه للشرطة – وباللُغتين– لتظهر صورة تؤكّد علاقتهم بالمنفّذ، لغتهم المشتركة معه، وإيهام المشاهدين بأن «القاتل» يُصغي إلى كلام هؤلاء الناس.[٦]

زاد الشرخ بين هذين التوجّهين في اليوم الثاني بعد عمليّة نشأت ملحم، حين وصل نتنياهو إلى موقع العمليّة ليُلقي فيها خطابًا سياسيًا على ضوء الشموع التي أشعلت لذكرى القتلى.٧ الكاتب يوسي فرطر ذكّر في هآرتس بالتصريح الذي أدلى به نتنياهو قبل ٢١ عامًا في الموقع ذاته تقريبًا، بعد العمليّة التي دبّرها يحيى عيّاش ونفّذها صالح نزّال يوم ١٩ تشرين الأول ١٩٩٤،٨ في حينه، حمّل رئيس المعارضة في حينه المسؤوليّة لرئيس الحكومة إسحق رابين الذي اغتيل بعد عام ونيّف من هذا التصريح.[٩] مُحاطًا بوزير الأمن الداخليّ، القائد العام للشرطة ورجال الأمن الذين يهيمنون على الصورة من كل زوايا التصوير الممكنة. خطاب من خمس دقائق – دقيقة وأربعون ثانية لوصف ما حدث، تعزية عائلات القتلى والجرحى، تلخيص الوضع الأمنيّ، أما التتمّة فتحميل المجتمع الفلسطيني في الداخل، والطائفة الإسلاميّة تحديدًا، مسؤوليّة تامّة عن العمليّة. بدايةً، وضع النوّاب العرب في الكنيست في خانة «المتّهمين حتّى تُثبت براءتهم» ومطالبتهم ، فردًا فردًا، باستنكار العمليّة «دون تأتأةٍ وفذلكات». بنفسٍ واحدٍ، حمّل المساجد وجهاز التعليم (!) والشبكات الاجتماعيّة مسؤوليّة التحريض، وموضع إخراج الحركة الإسلاميّة عن القانون كخطوة محوريّة في مكافحة التحريض الذي أدّى إلى هذه العمليّة، كما تحدّث عن إخراج حركة «المرابطون» (لفظها بالعربيّة) التي اخترعها نتنياهو للتو ليُضفي لفظها العربيّ الذي لم يألفه الجمهور الإسرائيليّ بعدًا غامضًا يؤجج حالة الترويع الدراميّة.

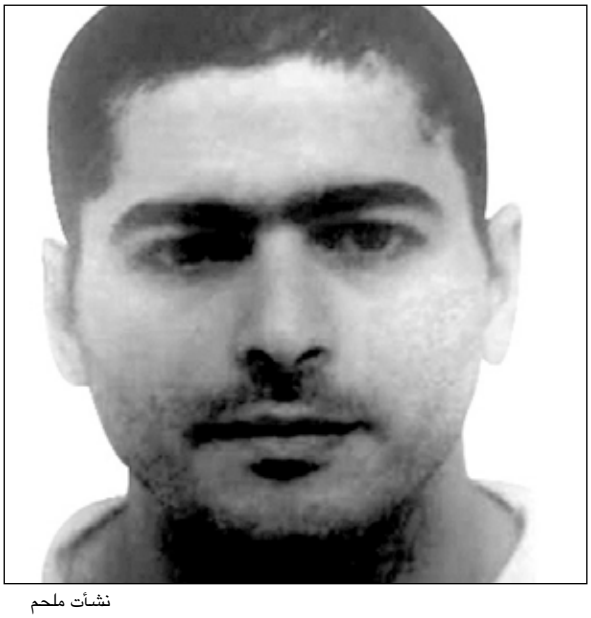

نشأت ملحم

البحث عن نشأت ملحم

استخدم كلمة «جيوب» (מובלעות/ exclaves–) بمعنى منطقة من دولة محاطة بدولة أخرى من جميع الاتجاهات) ليصف حال القرى العربيّة في الداخل ويُضفي بعدًا استراتيجيًا لمعركته التي سيُعلنها في غضون لحظات قليلة. جيوب يجتمع فيها التحريض الإسلاميّ المتطرّف بانتشار السلاح الذي يُستخدم «بالأعراس والأفراح والجريمة» كما يصفه نتنياهو وهو يجمع أعراس المجتمع بجرائمه، ويصّر على ان العنف جزءًا جوهريًا من طبيعة المجتمع الفلسطينيّ. والآن، يُحدد نتنياهو «نهاية هذا العهد» ويُعلن عن صياغة خطة واسعة لتطبيق القانون في الوسط العربيّ. «سندخل إلى كل البلدات، ونطالب الجميع ولاءً كاملًا لقوانين الدولة» – يقول بلهجةٍ تُذكّر الإعلان عن بدء الدخول البريّ إلى غزّة عام ٢٠١٤ أو جنوب لبنان عام ٢٠٠٦.

للتوجّهين المطروحين جذور في انقسام الساحة الإسرائيليّة حول الموقف من بنيامين نتنياهو عشيّة الانتخابات البرلمانيّة عام ٢٠١٥. انتخابات تناولت السياسة من خلال شخص نتنياهو، وضعته في المركز وخلقت تماهيا تاما بين الشخص وتيّاره السياسيّ.[١٠] وساهم في صياغة الحملة بهذا الشكل انعدام قدرة الأحزاب الإسرائيليّة المعارضة لنتنياهو على مهاجمة حكومته الثالثة والثلاثين، وذلك بعد تورّط الأطراف المركزيّة المنافسة في الانتخابات بهذه الحكومة – يائير لابيد كان وزير الماليّة، وليفني (التي انضمّت لحزب العمل) كانت وزيرة القضاء.[١١] بمعنى أن الانتخابات شكّلت نوعا من المنافسة بين كتل الائتلاف الحكومي ذاته، ما منحها بُعدًا انتقاميًا عززته إقالة نتنياهو المُهينة لليفني ولابيد.[١٢] هنا، يجدر التذكير بأحد أسباب هذه الإقالة وهو رفض ليفني ولابيد دعم «قانون القوميّة» الذي يؤكد على الطابع الإثني اليهودي لدولة إسرائيل.[١٣] ليفني وصفت نفسها، في حينه، بأنها حارسة الديمقراطيّة الإسرائيليّة، وأنها تسير على هدى جابوتينسكي.[١٤]

بثّت القناة الإسرائيليّة الثانية نهاية شهر كانون الثاني من العام الجاري تقريرًا يكشف طبيعة عمل الحملة الإعلاميّة لحزب الليكود في الانتخابات الأخيرة التي أكسبته الانتخابات «بما يشبه السحر».[١٥] وانكشفت في التقرير عوامل عدّة رسمت استراتيجيّة نتنياهو الانتخابيّة، وهي استراتيجيّة رُسمت على هيئة مثلّث، يُمكن أن نسمّي ضلعه الأوّل «ضلع الجودو» – أي استخدام القوّة المركّزة التي يستخدمها معارضو نتنياهو ضدّهم، أي ترجمة كره اليسار لنتنياهو إلى حبّ اليمين له. أما الضلع الثاني فهوة ضلع القائمة المشتركة، الذي ركّز الوجود السياسي العربي كتهديد فعليّ وليس كمعطى سياسي عام، إذا تحوّل العرب إلى تكتل قويّ يستطيع أن يحسم قاطعًا في تشكيل الحكومة الإسرائيليّة. أما الضلع الثالث فهو تكتيل اليمين بواسطة توجيه ضربات للأحزاب اليمينيّة الأخرى (كان ليبرمان أول ضحيّة لها، وبينيت الثاني). في التقرير، يتحدّث مسؤلو الحملة الإعلاميّة عن اسراتيجيّة إعلاميّة اعتمدت على تجاوز الصحافة الرسميّة والوصول المباشر إلى الجمهور عبر الهواتف النقّالة وتحديد الرسائل لأهداف جماهيريّة محددة بدقّة – رسائل انسجمت كلّها تحت الرادار لترفع رأسها، وبقوة، في الساعات الأخيرة فقط، من خلال فيديو ظهر فيه نتنياهو بحالة طوارئ وهلع على خلفيّة خارطة الشرق الأوسط، تُحيطه إيران من اليمين وليبيا من اليسار.[١٦]

إن الخلاف حول قانون المواطنة، وما تلاقيه من انقسام، هو في الحقيقة خلاف بين نهجين من العنصريّة اليهوديّة: واحد يطلب الإبقاء على منظومة قانونيّة مجرّدة من التعبير العنصريّ، بحسبه، فإن التمييز يجب أن يظهر في القانون الإسرائيليّ بالحدّ الأدنى.[٢٠] أين؟ في الأماكن التي لا تستطيع فيها النظم الإداريّة، السياسات الحكوميّة، الأوامر العسكريّة والقرارات القضائيّة أن تؤدي وظيفة التمييز العنصريّ. بمعنى أن القانون يجب أن يبقى وظيفيًا وفي الحدّ الأدنى. من الجهة الأخرى، نجد نهجًا يتحوّل فيه التعبير عن التمييز، النطق به وإشهاره، هدفًا بحدّ ذاته.

حفلة الانتخابات التي بدأت بنقاش قانون المواطنة وانتهت بهذا الفيديو وانتصار نتنياهو انتجت تعبيرًا جديدًا (هو الموقف من مكانة المواطنين العرب) عن الشرخ بين يسار الخارطة السياسيّة الإسرائيليّة ومركزها من جهة، ويمينها من جهةٍ أخرى. بين تيّار سياسي يصر على أن يُثبت الفلسطينيّون داخل إسرائيل حقّهم بالمواطنة من خلال تأكيد ولائهم للدولة اليهوديّة وقوانينها، ويضع المجتمع الفلسطيني في امتحانٍ دائم، الفرضيّة الأولى أنهم مُجرمون، الفرضيّة الأولى أنهم يسعون للمسّ بإسرائيل. مواطنتهم، بالنسبة لهذا التيّار، مضمونة، ولكنها خاضعة لشروط. مثلما تصريحات ليبرمان قُبيل الانتخابات: «من يؤيّدنا يجب أن يحصل على كلّ شيء، أما من يقف ضدّنا فلا مجال آخر أمامنا – يجب أن نرفع الفأس ونقطع رأسه.[١٧] ... هذا، بكلمات أخرى، هو «الامتحان» الذي تحدّث عنه روني دانيئيل في تغطية عمليّة تل أبيب.

من الجهة المقابلة، تيّار سياسيّ يثق بولاء المواطنين العرب للدولة والقوانين، لا يعرّض المجتمع كلّه لامتحانٍ دائم إنما يُتقن التمييز بين «الأغلبيّة المندمجة» وبين «الأقليّة الانفصاليّة» – بكلماتنا نحن، أن يسار الخارطة الإسرائيليّة يطلب التمييز بين العرب الذين يقبلون دورهم كرعايا مهتمّين بالأكل والشرب، العمل والتعليم كمصلحة فردانيّة ضيّقة، وبين العرب المهتمّين بالشأن العام والفعاليّة السياسيّة والموقف من شكل النظام السياسي الذي يعيشون تحته. وشجّع هذا التوجّه، بالمناسبة، موقف «القائمة المشتركة» الذي رفع خطاب «الاندماج» جهارًا وركّز حملته بالربط بين إسقاط نتنياهو والمطالب الحياتيّة للمجتمع العربيّ، تلك البعيدة عن الموقف القيميّ من طبيعة النظام في إسرائيل.[١٨] الفرق بين توجّه نتنياهو ويمين الخارطة، و «المعسكر الصهيوني» ويسار الخارطة، هو أن الأوّل يشترط صفة المواطنة للفلسطينيين، أما الثاني فيُبقي مواطنة فارغة المضمون – إذ إنّه يفترض أن مجموعة من المواطنين، بشكلٍ ضمنيّ، هم رعايا فاقدون لرغبتهم بأن يصبحوا فاعلين سياسيين. وهي العمليّة المعاكسة لنشوء المواطنة.[١٩]

إن الخلاف حول قانون المواطنة، وما تلاقيه من انقسام، هو في الحقيقة خلاف بين نهجين من العنصريّة اليهوديّة: واحد يطلب الإبقاء على منظومة قانونيّة مجرّدة من التعبير العنصريّ، بحسبه، فإن التمييز يجب أن يظهر في القانون الإسرائيليّ بالحدّ الأدنى.[٢٠] أين؟ في الأماكن التي لا تستطيع فيها النظم الإداريّة، السياسات الحكوميّة، الأوامر العسكريّة والقرارات القضائيّة أن تؤدي وظيفة التمييز العنصريّ. بمعنى أن القانون يجب أن يبقى وظيفيًا وفي الحدّ الأدنى. من الجهة الأخرى، نجد نهجًا يتحوّل فيه التعبير عن التمييز، النطق به وإشهاره، هدفًا بحدّ ذاته. يطلب هذا النموذج أن يغيّر وظيفة القانون، فيصبح تعبيرًا عن الإرادة الفوريّة لجمهور الأغلبيّة.

تحويل القانون إلى تعبير عن إرادة الأغلبيّة الفوريّة هو ضرب من الشعبويّة. والشعبويّة ليست تهريجًا سياسيًا، ولا هي وسيلة لتحقيق المكاسب، ولا هي أداة تسويق سياسي – الشعبويّة موقف ايديولوجي ينزع ميكانيكيّات عقلنة الحكم، ويعود أدراجه إلى تعريفها البدائيّ الصافي لتتحوّل سريعًا إلى دكتاتوريّة الأغلبيّة القوميّة. الشعبويّة تعبير فعليّ عن تصوّر لنظام الحكم يقلب الأدوار بين القانون والسُلطات. بدل أن تحتلّ فعاليّة السلطات، التي تُعبر عن إرادة المواطنين، مساحة الحُكم، ويشكّل القانون بُنية الحدود والتقييدات لهذه المساحة، تحوّل السلطة التشريعيّة المنتخبّة القانون إلى مضمون العمل السياسيّ، يُعبّر هو عن إرادة المواطنين. تُصبح التقييدات جوهر الحياة السياسيّة لا حدودها.

الإعلام الإسرائيلي: «العرب جميعهم مسؤولون».

إن الوصف الإسرائيلي لنتنياهو بأنه سياسيّ صغير، انتهازيّ، همومه انتخابيّة وغير معنيّ إلا باستمراره في الحكم لأهداف نفعيّة خالصة، بمعنى الحكم لأجل الحكم، هو توصيف خاطئ وغير دقيق لنتنياهو وتاريخه السياسي.[٢١] وأكثر من ذلك – إن توصيف نهج نتنياهو في سياق العنصريّة وكراهيّة الفلسطينيين والتخلّص منهم هو غير دقيق. يُقال إنه جبان، ويُقال إنه لا يقوى على اتخاذ خطوات سياسيّة كبيرة وجديّة واستثنائيّة.[٢٢] لكن الحقيقة أبعد من هذا بكثير. الحقيقة أنه رجل دولة، غير مُهتم بتصوير نفسه كصاحب خطوات استثنائيّة، إنما يتعامل مع كل فترة حكمه، كوحدة واحدة مركّبة من مئات الخطوات الصغيرة – فسيفساء باتجاه تحوّل جوهريّ وتاريخيّ في شكل الدولة وميكانيكيّة نظامها. نتنياهو مهتم بحفر ملامح جديدة في النظام الإسرائيلي انطلاقًا من فرضيّة «سنعيش على حدّ السيف للأبد»، والمعلم الأساس في هذا التحوّل هو «قانون الحكم» الذي يُصر نتنياهو على تطبيقه منذ التسعينيّات. [٢٣]

من أين تنبع قوّة مقولة «حدّ السيف للأبد» ؟ هنا تجدر الإشارة إلى استفادة نتنياهو الثمينة من العمليّات الفرديّة التي ينفّذها الشابّات والشبّان الفلسطينيّون. ليس لأنه يعتاش على الهستيريا والرعب. إنما لطبيعة العمليات التي تجمع الأجهزة الأمنية، الشاباك والشرطة والجيش، أن أحدًا لا يستطيع توقّعها وإيجاد حلول أمنيّة أو سياسيّة لها. بمعنى أنها تُخرج نتنياهو من دائرة المسؤوليّة والمحاسبة الجماهيريّة، فلا يوجد سياسيّ إسرائيليّ يدّعي بأنه يمتلك حلًا لعمليّات الطعن. الوضع القائم هو دلالة على أن القضيّة ليست مكافحة تنظيم سياسي «إرهابي» مثل حماس أو الجبهة الشعبيّة أو حتى القاعدة، إنما هو قضيّة حرب دائمة لا مفرّ منها مع الفلسطيني باعتباره فلسطينيًا. فالتأبيد الذي يتحدّثون عنه لحكم نتنياهو، يأتي من خلال تأبيد الأفق المغلق مع الفلسطينيين والرهان على تقليص وتيرة العمليّات وسط «نعيش للأبد على حدّ السيف» التي يفاخر بها نتنياهو ويخلق لها تعبيرات مادية على الأرض من خلال إعلانه عن خطة لبناء الجدران والعراقيل أمام «وحوش الغابة» في طريقهم إلى فيلا الديمقراطيّة.[٢٤]

أثبت فشل سن قانون الحكم مرة تلو الأخرى لنتنياهو أن قانونا بهذه الدرجة من الجوهريّة يحتاج بناءً من الأسفل – تجهيز النظام إلى سيطرة شبه رئاسيّة على قوس صلاحيّات واسع. في الأسابيع الأخيرة فقط فتح نتنياهو حربه ضد لجان التعيينات تحت عنوان «انتُخبنا لنحكم»،[٢٥] عيّن مستشارًا قضائيًا مقربًا،[٢٦] يرأس بنفسه وزارة الإعلام ووزارة الخارجيّة ووزارة التعاون الإقليمي ووزارة الاقتصاد. ملاحقة الفلسطينيين ليست هدفًا بحد ذاتها، والتحريض ضد المجتمع الفلسطيني ليس هدفًا بحدّ ذاته، إنم هو تعبير عن إرادة الأغلبيّة – استهداف الأقليّة هو وسيلة لتعظيم ثقة الأغلبيّة بنفسها، وتعبير نتنياهو الفظ عن العنصريّة، ومظهرته كعاجز عن تنفيذ السياسات العنصريّة بسبب المحكمة العليا أو بسبب القانون القائم أو بسبب المعارضة، هو عمليًا تذكير عنيف للأغلبية بالقيود الملقاة عليها، وتعزيز شهيّتها للسيطرة التامّة على النظام كوقود لتغيير طريقة الحُكم في إسرائيل.

إنّ تصعيد اللهجة العنصريّة اتجاه الفلسطينيين في إسرائيل وتصعيد سياسات الاحتلال عمومًا، يوظّف بشكلٍ منهجيّ من أجل ضرب أحزاب اليمين الصغيرة وامتصاص قوّتها لصالح الليكود من أجل خلق حزب–قطب يُجبر أحزاب اليسار على التكتل في قائمة واحدة، أحد الشعارات التي رفعها نتنياهو في الانتخابات

إن الوصف الإسرائيلي لنتنياهو بأنه سياسيّ صغير، انتهازيّ، همومه انتخابيّة وغير معنيّ إلا باستمراره في الحكم لأهداف نفعيّة خالصة، بمعنى الحكم لأجل الحكم، هو توصيف خاطئ وغير دقيق لنتنياهو وتاريخه السياسي.[٢١] وأكثر من ذلك – إن توصيف نهج نتنياهو في سياق العنصريّة وكراهيّة الفلسطينيين والتخلّص منهم هو غير دقيق. يُقال إنه جبان، ويُقال إنه لا يقوى على اتخاذ خطوات سياسيّة كبيرة وجديّة واستثنائيّة.[٢٢] لكن الحقيقة أبعد من هذا بكثير.

الأخيرة كان «ليكود كبير، مقابل كل اليسار».[٢٧] هذه نقطة بداية في التحوّل الذي يؤسس له نتنياهو . في خطاب قدّمه نتنياهو في مركز الليكود مع بداية الحملة الانتخابيّة، كان الشعر الذي كُتب بالبنط العريض فوق رأسه: «نُغيّر الطريقة»، بمعنى طريقة الحكم، وقد وصف في حينه السياسة الإسرائيليّة بأنها «تتفتت لأحزاب صغيرة» ما يمنع قيادة إصلاحات وتغييرات جديّة في الدولة بسبب كونها مقيدة بالتوازنات الائتلافيّة. في الوقت ذاته، يأتي دور نتنياهو الشخصيّ، البارز والثقيل على السياسة الإسرائيليّة.[٢٨]

دور نتنياهو المباشر في حظر الحركة الإسلاميّة، تقديمه شكوى بشكل شخصيّ للجنة الآداب في الكنيست ضد نوّاب القائمة المشتركة على أثر زيارتهم لعوائل الشهداء في القدس (وهي خطوة لم يفعلها أي رئيس حكومة سابق)، ردّه المندفع في الكنيست على أقوال النوّاب العرب، وقيادته شخصيًا لقانون عزل النوّاب العرب.

وليس فيما يتعلّق بالفلسطينيين فقط. فيُمكننا أن نذكر مثلًا توجّه نتنياهو للمحكمة العليا وتقدمه للإدلاء بشهادةٍ أمام المحكمة في قضيّة الغاز. فهو بذلك يطلب، بحضوره الثقيل، فرض حضوره على كافة السلطات، تقريب وتذويب الحدود بين السلطات المنفصلة، تمدد السلطة التنفيذيّة الرئاسيّة فوق باقي السلطات.

يصنع نتنياهو التاريخ ببطءٍ، ويرفض التعاطي مع الاحتلال والتمييز العنصريّ كمسألة يجدر حلّها بنوعٍ من الاعتراف بالجوهر الاستعماريّ للدولة التي يقودها. سيقودها لًلأبد على حدّ السيف، وهو لا يراها بطبيعة نظامها اليوم، قادرةً على الصمود إلى الأبد. نموذجه الذي يفاخر به جهارًا هو النموذج الأميركيّ – النموذج الذي صمد وأبّد دولة استعمار انبنت على كارثة شعب آخر، وتعيش بقوّة القمع العرقيّ. هذا هو، باختصار، الحلم الأميركيّ الذي يشغل نتنياهو.

الإعلام الإسرائيلي حول عملية ملحم إلى حفلة صيد للفلسطينيين في إسرائيل.

الهوامش

١ النشرة المسائيّة للقناة الثانية يوم الجمعة، ٢٠١٦/١/١
http://www.mako.co.il/news-channel2/vod-q4_2015/Article-02caba32e3ff151004.htm

٢ أمنون روبنشطاين، التحوّل الكبير لعرب إسرائيل. يسرائيل هايوم، ٢٠١٦/١/١٥

http://www.israelhayom.co.il/opinion/347831

٣ النشرة المسائيّة للقناة العاشرة، يوم الجمعة ٢٠١٦/١/١

http://10tv.nana10.co.il/Article/?ArticleID=1166994

٤ النشرة المسائيّة للقناة الثانية، ٢٠١٦/١/١

٥ المصدر ذاته.

٦ النشرة المسائيّة للقناة العاشرة، ٢٠١٦/١/١

٧ الصفحة الرسميّة لبنيامين نتنياهو على يوتيوب

https://www.youtube.com/watch?v=uetfaoP21yA

٨ يوسي فرطر، نتنياهو يبقى سياسيا صغيرا مثلما كان عام ١٩٩٤. هآرتس، ٢٠١٦/١/٣

http://www.haaretz.co.il/news/politi/.premium-1.2812814

٩ Clyde Haberm, ATTACK IN ISRAEL: THE OVERVIEW. New York Times, 20.10.1994

١٠ ألوف بين، انتخابات الكنيست الـ ٢٠: استفتاء حول نتنياهو. هآرتس، ٢٠١٤/١٢/٣.

http://www.haaretz.co.il/news/politi/.premium-1.2502713

١١ آتيلا شومفلبي، نتنياهو يقيل لابيد وليفني. Ynet، ٢٠١٤/١٢/٢.

http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-4598870,00.html

١٢ يوناثان ليس، نتنياهو: لن أتحمل معارضة داخل الحكومة. هآرتس، ٢٠١٤/١٢/٢

http://www.haaretz.co.il/news/politi/1.2502416

١٣ إلى الانتخابات: لابيد رفض مطالب نتنياهو. هآرتس، ٢٠١٤/١٢/٢

http://www.haaretz.co.il/news/politi/1.2501609

١٤ أعلاه: يوناثان ليس، نتنياهو: لن أتحمل معارضة داخل الحكومة.

١٥ هكذا ربح نتنياهو معركته الانتخابيّة، القناة الثانية، ٢٠١٦/١/٢٥

http://www.mako.co.il/news-military/politics-q1_2016/Article-d22b77e844a7251004.htm

١٦ الصفحة الرسميّة لبنيامين نتنياهو على يوتيوب، ٢٠١٥/٣/١٧

https://www.youtube.com/watch?v=Q2cUoglR1yk

١٧ ليبرمان: «من ضدنا نقطع رأسه بالفأس، موقع mako، ٢٠١٥/٣/٨

http://www.mako.co.il/news-military/politics-q1_2015/Article-84b1c43a9a9fb41004.htm

١٨ يُنظر مثلًا إلى المناظرة الانتخابيّة عبر القناة الثانية يوم ٢٠١٥/٢/٢٦

http://www.mako.co.il/news-military/politics-q1_2015/Article-0f56d05c7f6cb41004.htm

١٩ دحو جربال، حول الكتابة الصعبة لتاريخ مجتمع مستقل (صوريّاً). ملحق السفير العربي في جريدة السفير.
refsite=a&٣٨٣٢=http://arabi.assafir.com/article.asp?aid
rabi&reftype=articles&refzone=articles

٢٠ حسن جبارين، ليستمر التميز بهدوء. هآرتس ٢٠١٤/١٢/٨.
http://www.haaretz.co.il/opinions/.premium-1.2504227

٢١ يوسي فرطر، نتنياهو يبقى سياسيا صغيرا مثلما كان عام ١٩٩٤. هآرتس، ٢٠١٦/١/٣

http://www.haaretz.co.il/news/politi/.premium-1.2812814

٢٢ يُنظر مثلًا: باراك رافيد، مسؤولون أميركيّون: نتنياهو جبان لا يشغله إلا الحفاظ على الحكم. هآرتس، ٢٠١٤/١٠/٢٨

http://www.haaretz.co.il/news/politics/1.2470548

٢٣ عمنوئيل نافون، لماذا فشل قانون الحكم؟. موقع ميدا، ٢٠١٥/٥/١٤

http://mida.org.il/2015/05/14/%D7%9E%D7%93%D7%95%D7%A2-%D7%A0%D7%9B%D7%A9%D7%9C-%D7%97%D7%95%D7%A7-%D7%94%D7%9E%D7%A9/%D7%99%D7%9C%D7%95%D7%AA

٢٤ ايتامار آيخنر، نتنياهو يريد إحاطة إسرائيل بالأسوار. Ynet، ٢٠١٦/٢/٩

http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-4764099,00.html

٢٥ موطي باسوك، نتنياهو يعود للتعيينات السياسيّة. The Marker، 8/2/2016

http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-4764099,00.html

٢٦ حين شليطا، ترشّح مندلبلط المركّب لمنصب المستشار القضائي. Globes، ٢٠١٥/١٠/١٠

http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-4764099,00.html

٢٧ شعار الحملة الانتخابيّة لليكود، وهو استعادة لشعار الليكود الانتخابي عام ١٩٩٢ بقيادة إسحق شامير

٢٨ صفحة بنيامين نتنياهو على يوتيوب، خطاب افتتاح الحملة الانتخابيّة ٢٠١٥

https://www.youtube.com/watch?v=qNHAEi5AvzY